سُنَنُ الله عزَّ وَجَلَّ في خَلْقِه

واسْتِمْدَادُ مَعْرِفَتِنَا بِهَا مِنْ أسمائه الـحُسْنَىٰ وَصِفَاتِـهِ العُلَا

كتبه

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

ملخّص البحث

عنوان البحث هو : سُنَنُ الله عزَّ وَجَلَّ في خَلْقِه : واسْتِمْدَادُ مَعْرِفَتِنَا بهَا مِنْ أسمائه الـحُسْنَىٰ وَصِفَاتِـهِ العُلَا.

وقد تضمن البحث مقدمة وتمهيدا وثلاثة مباحث :

فالتمهيد : في بيان معنى السُّنن الإلهية وسرد أهم خصائصها التي أثبتتها آياتُ الكتاب العزيز .

والمبحث الأول : الاستدلال لعلاقة السُّنن الإلهية في الخلق بأسماء الله تعالى وصفاته .

والثاني : اسم (الحق) وتجلياته في (العدل) وعلاقته بالسنن الإلهية .

والثالث : اسم (الجميل) وتجلياته في (الإبداع) وعلاقته بالسنن الإلهية .

وقد اخترت في تعريف السنن الإلهية التعريف التالي : هي آثار صفات الله تعالى الخالدة في خَلْقِه وأقدارهم .

وبينتُ أهم خصائصها التي وردت في القرآن الكريم ، وهي :

١ -الثبات وعدم التَّبدُّلِ .

٢ -أن ثباتها مستمدٌّ من خلود حُكم الله تعالى وسُلطانه الأزلي .

٣ -أنها سُننٌ قائمة على العدل الإلهي والحقّانيّة الربانية .

٤ -أنها عِظةُ الله تعالى وعِبرتُه إلى خَلْقِه من خَلْقِه .

٥ -أنها سُننٌ واضحةٌ للعيان : لمن قرأ واعتبر وتدبّر .

وبينت أن اسم الله تعالى (الحق) هو الذي جعل أظهرَ تَـجلِّياتِ السُّنن الإلهية : هو العدل ، وأن اسم الله تعالى (الجميل) هو الذي جعل الإبداع أجملَ مظاهرها .

Summary

Title: The Sunnas of Allāh in His Creation, and understanding their relationship His Names and Attributes.

This essay is made up of an introduction, a prologue, and three chapters:

The prologue explains what is meant when we speak of Divine Laws (*al-Sunan al-Ilāhīyyah*)[١] and lists their most distinctive qualities as reflected by the Qur'ān.

Ch. 1: Demonstrating the relationship between the Divine Laws and Allāh's Names and Attributes.

Ch. 2: Allāh's Name "The Truth" (*al-Ḥaqq*) and its manifestation as justice (*'adl*), and its relationship to the Divine Laws.

Ch. 3: Allāh's Name "The Most Beautiful" (*al-Jamīl*) and its manifestation in His wondrous creations, and its relationship to the Divine Laws.

I have settled on the following definition for the Divine Laws (*al-Sunan al-Ilāhīyyah*): "They are the eternal manifestations of Allāh's Attributes in His creation and their destinies."

I clarified their most important qualities of the Divine Laws as reflected in the Qur'ān, and they are:

(1) Permanence.
(2) Their permanence derives from the eternal nature of Allāh's Rule and Authority.
(3) They are laws rooted in Divine Justice and Divine Truth.
(4) They serve as an admonition and a lesson to the creation from the creation.
(5) They are laws that can be plainly observed, if one reads and reflects.

I have explained that it is because of Allāh's Name "the Truth" (*al-Ḥaqq*) that the most obvious reflection of these Divine Laws is justice, and that Allāh's Name "the Most Beautiful" (*al-Jamīl*) is reflected in the wondrous precision and excellence of His creation.

---

[١] For the purpose of this paper, al-Sunan al-Ilāhīyyah or "Divine Laws" refers to the laws Allāh has placed in His creation and His Divine Decree, not legislation.

المقدمة

الحمد لله الذي أشرقت لنور وجهه الظُّلمات ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة .

والصلاة والسلام على سيد البريّات ، وعلى أزواجه الطاهرات ، وذريته ما دامت الأرض والسماوات .

أما بعد :

فإن البحث في سُنن الله في خلقه بحث لا ينتهي إلى نهاية ، وليس لعُمقه غاية ؛ لأنه بحثٌ يتناول إحدى أظهر تجلّيات الخالق في خلقه ، وأنّى لمن بحث في جلال ذي الجلال أن يصل إلى غاية ؟!

ولذلك فقد اخترتُ مسألة دقيقةً من مسائل سُنن الله تعالى في خلقه : وهي بيان علاقتها بأسماء الله تعالى الحُسْنَى وصفاته العُلا ، وإثبات هذه العلاقة ، وضرب المثل لها ببعض الأسماء والصفات وعلاقتها بسنن الله تعالى في خلقه . فبغير اختيارٍ دقيقٍ متخصِّصٍ في مثل هذا الموضوع الكبير : سوف يتشتّت الكلام ، ويتوهُ في المجملات ، ولا يأتي بملمحٍ مُسْتَمْلَحٍ ولا بإضافةٍ تُستلطف .

وهذا ما جعل البحث ينقسم إلى تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : في بيان معنى السُّنن الإلهية وسرد أهم خصائصها التي أثبتتها آياتُ الكتاب العزيز .

المبحث الأول : الاستدلال لعلاقة السنن الإلهية في الخلق بأسماء الله تعالى وصفاته .

والثاني : اسم (الحق) وتجلياته في (العدل) وعلاقته بالسنن الإلهية .

والثالث : اسم (الجميل) وتجلياته في (الإبداع) وعلاقته بالسنن الإلهية .

التمهيد

في بيان معنى السُّنن الإلهية

وسرد أهم خصائصها التي أثبتتها آياتُ الكتاب العزيز

ولنعمق فهمنا لـ(السنن الإلهية) ودلالتها : نبدأ أولا بمعرفة أصل الدلالة اللغوية لـ(السنة). لنجد أن (السنة) في اللغة ترجع إلى معنى أصليٍّ واحدٍ ، باتفاقِ المتحدِّثين عن أصل دلالتها من السابقين والمعاصرين . وهذا الأصل هو :«جريانُ الشيء واطّرادُه في سهولة ... ومما اشتُقَّ منه : (السُّنة) ، وهي السيرة» ، في قول علامة اللغة ابن فارس (ت٣٩٥هـ)[١].

ووافقه على ذلك العلامةُ الإماميُّ حسن المصطفوي –رحمه الله –(ت١٤٢٦هـ)[٢].

وفي تعبير العالِم اللغويِّ المصريِّ المعاصرِ محمد حسن حسن جبل – رحمه الله – (ت١٤٣٦هـ) : أن المعنى المحوري لمادة (سنن) هو : «نفاذ الشيء الدقيق بامتدادٍ لتهيئته وتسويته لذلك ، كَسِنِّ الرُّمح .. ومن النفاذ المعنوي : السُّنة : الطريقة ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس – تحقيق : عبد السلام محمد هارون . الطبعة الأولى . دارالكتب العلمية : قم –(٣/ ٦١) .

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي – الطبعة الثالثة : ٢٠٠٩م . دار الكتب العلمية : بيروت –(٥/ ٢٨٧) .

قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] ، فـ(السُّنة) : أمرٌ، أو تَصرُّفٌ ، يُهيّأُ ، أو يُقصَدُ به – أو يَصْلُحُ – للاستمرار عليه والعمل به ، وهذا امتدادٌ ونفاذٌ»(١).

ومن هذا التعريف اللغوي نجد أن تعريف (السنة) : بالسيرة ، وبالطريقة ، وبالطبيعة : كلها ألفاظ تدل على نهجٍ مُتَّبعٍ ، وعلى عادةٍ مطّردة .

ولذلك قال الراغب الأصبهاني (ت حدود ٤٢٥هـ) في تعريف (سُنة الله) : «قد تُقال لطريقة حِكْمته ، وطريقة طاعته»(٢).

وتبعه الـمُناوي (ت١٠٣١هـ) على هذا التعريف لـ(سنة الله)(٣).

ومقصود الراغب من ذلك : أن سُنة الله تعالى تُطلق على أمرين :

الأول : سُنته عزّ وجل في الخلق والتقدير .

والثاني : سُنته عزّ وجل في الأمر والتشريع .

وقال الراغب عن الأمر الثاني : «نحو ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾[الفتح: ٢٣]، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا ﴾[فاطر: ٤٣]، فتنبيهٌ أن فروع الشرائع –

---

(١) المعجم الاشتقاقي المفصَّل لألفاظ القرآن الكريم لمحمد حسن حسن جبل – الطبعة الرابعة : ١٤٤٠هـ . مركز المربي : المدينة المنورة –(١/ ٦٩٥–٦٩٦) .

(٢) المفردات للراغب – تحقيق : صفوان داوودي . الطبعة الثانية : ١٤١٨هـ . دار القلم : دمشق ، والدار الشامية : بيروت –(٤٢٩) .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي – تحقيق : د/ محمد رضوان الداية . الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ. دار الفكر المعاصر : بيروت ، ودار الفكر : دمشق –(٤١٥) .

وإن اختلفت صورها- فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس، وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره» .

ولا شك أن حديثنا سوف ينصبُّ على القسم الأول من سُنن الله تعالى ، وهو سُننه عز وجل في خلقه وتقديره ، وبتعبير الراغب الأصبهاني : «طريقة حِكمته تعالى ».

فالذي اختاره الراغب (ووافقه عليه المناوي) للتعريف بـ(السُّنن الإلهية) هو أنها : طريقةُ حِكمة الله تعالى . وعندما اختار أن يُعبّر عنها بـ(طريقة حِكمته) ، ولم يكتفِ بـ(حِكمته) : فهو يريد أن يؤكّد على تَضَمُّنِ دلالتها معنى الاستمرارِ والثبات ، ولذلك قال : طريقة حِكمته .

ومن آيات الكتاب العزيز الواردة في السنن الإلهية التي تتحدّث عن سُننه تعالى في خَلقه وتقديره[1]، والمبيِّنةِ عن أهمّ خصائص هذه السُّنن :

(١) ولذلك لم أذكر في هذا السياق قوله تعالى ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب : ٣٨]؛ لأن هذه الآية تتحدث عن سُنن الله تعالى التشريعية ، وليست عن سُننه تعالى في الخلق والتقدير .
قال الطبري في تفسيرها : «وقوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يقول: لم يكن الله تعالى ليؤثِّم نبيه فيما أحل له ، مثال فعله بمن قبله من الرسل الذين مضوا قبله ، في أنه لم يؤثمهم بما أحل لهم، لم يكن لنبيه أن يخشى الناس فيما أمره به أو أحله له. ونصب قوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ على معنى: حقا من الله، كأنه قال: فعلنا ذلك سنةً منا . وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ يقول: وكان أمر الله قضاءً مقضيًّا». جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري –تحقيق : د/ عبد الله التركي . الطبعة الأولى : ١٤٢٢هـ . دار هجر : القاهرة –(١٩/ ١١٩) .
وقال ابن عطية في تفسيرها : «هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة ، أعلمهم أنه لا حرج على رسول الله ﷺ في نيل ما فرض الله له وأباحه من تَزَوُّجِه لزينب بعد زيد ، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السَّنَنُ

قوله تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

وقوله تعالى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢] .

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣] .

وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥] .

وقوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ

الأقدمُ في الأنبياء: من أن ينالوا ما أحلّه الله لهم» . المحرّر الوجيز لابن عطية - تحقيق: مجموعة من الباحثين . الطبعة الأولى المحققة: ١٤٣٦هـ . وزارة الأوقاف القطرية -(٨/ ٢٢) .

ونحو هذه الآية: قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] . فهي في السنن الإلهية التشريعية .

قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٢ - ٤٤].

ومن هذه الآيات الكريمات تتضح بعض أظهر خصائص السنن الإلهية :

١ - الثبات وعدم التَّبدُّلِ : وهي أظهر خصائصها ، كما في قوله تعالى ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر : ٤٣].

٢ - أن ثباتها مستمدٌّ من خلود حُكم الله تعالى وسُلطانه الأزلي ؛ لأنها منسوبة إليه تعالى وتقدّس (سُنن الله) ، وهو عزّ وجلّ الذي لا يقع في خلقه وملكوته إلا ما أراده وفق كمال ألوهيته وصفات أزليته .

٣ - أنها سُننٌ قائمة على العدل الإلهي والحقّانيّة الربانية .

٤ - أنها عِظةُ الله تعالى وعِبرتُه إلى خَلْقِه من خَلْقِه ، لمن نظر منهم نظرَ تَفكُّرٍ وتَدبُّرٍ في الخلق ومقادير الله تعالى فيهم .

٥ - أنها سُننٌ واضحةٌ للعيان : لمن قرأ الأُمم والحضارات ، لمن اعتبر بتاريخ البشرية ، لمن أحبّ أن يتّعظ بغيره قبل أن يكون هو عِظةً لغيره ، لمن تدبّر مخلوقاتِ الله تعالى ونظامَ هذا الكون . ولذلك أُمرنا بالسير والنظر في الخلق والتقدير : ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وبعد هذا الاستعراض لما قيل في تعريف (السنن الإلهية في الخلق)، ولنصوص الكتاب العزيز التي بيّنت أهمَّ خصائصها ، **نستطيع أن نعرّف (السنن الإلهية في الخلق) بأنها : هي آثار صفات الله تعالى الخالدة في خَلْقِه وأقدارهم .**

فقولي : « آثار صفات الله تعالى» ؛ فلأن السُّنن الإلهية أفعال الخالق خلقًا وتقديرًا ، وأفعاله عزّ وجلّ هي من آثار صفاته تعالى ، فلا يصدر عن الله تعالى إلا ما أراده وفق صفات كماله في الربوبية والألوهية ، فلن تكون إلا الحقَّ المطلقَ والعدلَ المطلقَ والحكمةَ المطلقةَ والرحمةَ المطلقة والجمالَ المطلق ... إلى آخر صفات الكمال الإلهي المطلق التي لا آخر لها !

وعبارتي أشمل من عبارة الراغب الأصبهاني عندما عرّفها بـ (طريقة حِكمة الله تعالى) ؛ لأن الحكمة إحدى صفات الله تعالى التي تجلّت آثارها في الخلق والتقدير ، وليست الصفةَ الوحيدةَ لله تعالى التي تجلّت آثارها فيهما .

وقولي : «الخالدة» : تؤكد على صفة الثبات في السنن الإلهية ، وعلى سبب هذا الثبات ، وهو أن ثبات السنن الإلهية مُسْتَمَدٌّ من خلود صفات الله وأزلية سُلطانه تعالى وتقدّس .

وقولي : «في خَلْقِه وأقدارهم» : فهي تبيّن أنها سُننٌ يُمكن أن يُعرف بعضُها من تأمل مخلوقات الله وبديع صُنعها ، ومن أقدار الله الكونية التي أجراها عليهم .

وهي آثارٌ مخلوقة ، ولذلك فخلودُها خلودٌ بعد الإيجاد من العدم ، وحالَ بقائها ، كبقية المخلوقات ، ولا علاقة لها بخلود صفات الباري الأزلية : الأولية (بلا أول) الآخرية (بلا آخر).

وهو قيدٌ يُخرج السُّننَ الإلهيةَ في تشريعه وأوامره التكليفية التي أنزلها على رُسُله (عليهم الصلاة والسلام) وبلّغوها عن وحيه ، فهي خارجةٌ عن موضوع بحثنا الذي يبحث في قسم (سُنن الله في الخلق والتقدير) خاصة .

ومن هنا نلج إلى مباحث هذا المقال :

المبحث الأول

الاستدلال لعلاقة السنن الإلهية بأسماء الله تعالى وصفاته

إذْ لا شك أن كل أفعال الله عز وجل هي من آثار صفاته العُلا ، فلا يفعل تعالى فعلًا (وهو الـ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾)، ولا يخلق خلقًا (و﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾) ، ولا يُقدّرُ تقديرًا ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ إلا وهو راجعٌ إلى صفات كماله الأزلية ، لا يمكن أن يكون شيءٌ من ذلك إلا كذلك ؛ لأنه تعالى لا يخلق إلا بعلمه وبلطفه وبحكمته ، ولذلك رجعت الملائكة الكرام (عليهم السلام) في التسليم لله تعالى بخلقه آدم (عليه السلام) إلى صفتي العلمِ والحكمةِ ، فقالوا : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]. وبيّن الله تعالى قيامَ خلقه على كمال علمه ولُطفه ، فقال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] ، والمعنى : كيف يمكن أن لا يكون الخالقُ عالما بخلقه . وقال تعالى ﴿اللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر : ١١]، وقال تعالى ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾[فصلت:٤٧].

وقد أرشدنا الباري (سبحانه وتعالى) إلى أن أقداره وتدابيره إنما هي من آثار صفاته ، وبيّنَ لنا ذلك بلفظ صريح يدل على هذه الحقيقة ، عندما قال سبحانه تعالى ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ

لُمبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم : ٤٨ - ٥٠]، فسمى الله تعالى إرساله الغيث إلى الأرض الميتة والنفوس اليائسة (وهو من تدابيره عز وجل) بأنه (آثارُ رحمة الله) ، فهو أثرٌ من آثار صفة رحمة الرحمن الرحيم عز وجل .

قال ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) : «معرفةُ تَعلُّقِ الوجود خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى، والصفات العُلا ، وارتباطه بها ، وأن العالَـمَ بما فيه : مِن بعض آثارها ومقتضاها :

وهذا من أجل المعارف وأشرفها.

وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفةٌ خاصة، فإن أسماءه سبحانه أوصافُ مدحٍ وكمال، وكلُّ صفةٍ لها مقتضى وفعلٌ : إما لازِمٌ، وإما متعدٍّ ، ولذلك الفعل تَعَلُّقٌ بمفعولٍ هو من لوازمه ، وهذا في خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه ، كل ذلك آثارُ الأسماءِ الحسنى وموجَباتُها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات . كما أنه يستحيل تعطيل مفعولِه عن أفعاله ، وأفعالِه عن صفاته، وصفاتِه عن أسمائه ، وتعطيلُ أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفاتِ كمال، وأفعالُه حِكَمًا ومصالح ، وأسماؤه حُسنى = ففرض تعطيلها عن موجَباتِها مستحيلٌ في حقه . ولهذا ينكر سبحانه على من عطّله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به ، بل يَتنزَّهُ عنه، وأن ذلك حُكْمٌ سيِّئٌ ممن حكم به عليه ، وأن من نسبه إلى ذلك فما قَدَرَه حقَّ قَدْرِه، ولا عظّمه حق تعظيمه :

- كما قال تعالى في حق منكري النبوة وإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٩١].

- وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧].

- وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] ، فأخبر أن هذا حُكْمٌ سيئٌ لا يليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته.

- وقال سبحانه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]: عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلافَ مُوجَبِ أسمائه وصفاته ؛ إذ ذلك مستلزِمٌ تعطيلَها عن كمالها ومقتضياتها:

- فاسمه (الحميد) (المجيد) : يمنع ترك الإنسان سُدًى مهملا معطلا ، لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب . وكذلك اسمه (الحكيم) : يأبى ذلك ، وكذلك اسمه (الملك) .

- واسمه (الحي) : يمنع أن يكون معطلا من الفعل ، بل حقيقة الحياة الفعل، فكل حي فعال، وكونه سبحانه خالقا قيوما من موجبات حياته ومقتضياتها.

- واسمه (السميع) (البصير) يوجب مسموعًا ومرئيًّا .

- واسمه (الخالق) يقتضي مخلوقًا .

- وكذلك (الرازق) .

- واسمه (الملك) يقتضي مملكةً وتَصرُّفًا وتدبيرًا، وإعطاءً ومنعًا، وإحسانًا وعدلًا، وثوابًا وعقابًا .

- واسم (البَرّ) ، و(المحسن)، (المعطي) ، (المنان) ، ونحوها : تقتضي آثارَها وموجَباتِها»[1].

وقال ابن القيم أيضًا في موطنٍ آخر : «إنه سبحانه له الأسماء الحسنى ، ولكل اسم من أسمائه أثرٌ من الآثار : في الخلق ، والأمر ، لا بُد من ترتبه عليه : كترتُّبِ المرزوق والرزق على الرازق ، وتَرتُّبِ المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير ، ونظائر ذلك في جميع الأسماء . فلو لم يكن في عباده من يخطيء ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه : لم يظهر أثر أسمائه (الغفور) و(العفو) و(الحليم) و(التواب) وما جرى مجراها .

وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها : فكما أن اسمه (الخالق) يقتضي مخلوقا ، و(البارئ) يقتضي مبروءًا ، و(المصوِّر) يقتضي مصوَّرًا ولا بد ، فأسماؤه (الغفار ، التواب ، العفو ، الحليم) تقتضي مغفورا له وما

---

(١) مدارج السالكين في منازل السائرين لابن قيم الجوزية – تحقيق : نبيل بن نصّار السندي . الطبعة الأولى : ١٤٤٠هـ. دار عالم الفوائد : مكة المكرمة –(٢/ ٣١-٣٣) .

يَغفرُه له ، وكذلك من يتوب عليه وأُمورًا يتوب عليه من أجلها ، ومن يَحلُمُ عنه ، ويعفو عنه ، وما يكون مُتعلَّقَ الحِلْم والعفو ...» إلى آخر كلامه[1].

ولذلك فقد أمر الله تعالى إلى التعرف عليه من خلال كُتبه المنزّلة ووحيه إلى رُسله ، وأيضًا: من خلال النظر في خلقه والتفكّر في بديع صُنعه عز وجل ؛ لأن في الخلق آثار أسمائه وصفاته .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم : ٨] ، فهنا يريد منا الله عز وجل أن نستنبط من التفكرّ في خلقه اسمه (الحق) واتصافه تعالى بـ(الحق).

وقال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] . وهنا يريد منا الله تعالى أن نعرف كمال قدرته تعالى من خلال ما يظهر لنا من عظيم خلقه الذي نراه في الأرض .

وقال تعالى ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ، وهنا يجعل الله تعالى النظر في كل ما في السموات والأرض دليلا على أنه تعالى هو (الواحد الأحد) وهو (المقتدر).

قال البيضاوي (ت٦٨٥هـ) في تفسيرها : «﴿قُلِ انْظُرُوا ﴾ : أي تَفكّروا ، ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : من عجائب صنعه ؛ لتدلَّكم على وحدته وكمال قدرته»[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم – تحقيق : د/ عبد الرحمن قائد . الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ . دار عالم الفوائد : مكة المكرمة –(٢/ ٨١٥-٨١٦) .

وقال الطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) : «أي فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانية ، والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال»[٢].

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية :١٧-٢٠] .

وقد قال فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) في تفسيرها : « اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة ، وقسم أهل القيامة إلى قسمين : الأشقياء ، والسعداء ، ووصف أحوال الفريقين ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم = لا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة ، فقال ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ، ووجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد : أنها تدل على وجود الصانع الحكيم ، ومتى ثبت ذلك : فقد ثبت القول بصحة المعاد ...» ، ثم بيّن وجه الدلالة[٣].

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي – الطبعة الأولى : ١٤١٨هـ . دار إحياء التراث العربي : بيروت –(٣/ ١٢٥).

(٢) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور – الطبعة الأولى : ١٩٨٤هـ . الدار التونسية للنشر –(١١/ ٢٩٥) .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي – الطبعة الأولى : ١٤٢١هـ . دار الكتب العلمية : بيروت –(٣١/ ١٤٢) .

وإذا كانت هذه هي صلة المخلوقات وتدابيرها بأسماء الله تعالى وصفاته ، وهي أنها أثرٌ من آثارها ، وهي – مع ذلك – لا تنفكُّ تحت سلطان ذلك الأثر الرباني أبدَ وجودها وأمدَ بقائها ؛ لأنها لا تنفك تحت أحكام سلطانه (عز وجلّ) ، وتحت تدابيره ، ووفق مقاديره (تعالى وتقدّس) كلَّ طرفةِ عينٍ وأدنى من ذلك ، و(أحكامُ سلطانِه تعالى) و(تدابيرُه) و(مقاديرُه) كلُّها أثرٌ من آثار أسمائه وصفاته أيضًا ولا شك ، كما كان منشأُ الإيجاد ومبتدأُ الخلق أثرًا من آثارها = فهذا يعني أن الخلق كله لن تنفصل عنه أبدًا آثارُ الأسماء والصفات ؛ ما دام موجودًا .

وهذا التلازم التام بين أثر الخالق والخلْقِ : يعني أن وجود الوجود معلَّقٌ بآثاره الربانية : آثارِ أسماءِ الخالق عزّ وجلّ وصفاته ؛ إذْ في حالة علاقة المخلوق بالخالق : لا يمكن أن يزول التأثير ويبقى الأثر ؛ لأن التأثير لا يتخلّفُ عن المؤثَّر فيه أبدًا ؛ إلا بالعدم وانتهاء الوجود !

ومن هنا تتبيّنُ علاقة السنن الإلهية بالأسماء والصفات : وهي أن آثار الأسماء والصفات هي حقائق الكون التي لا تتبدّل ، لأنها استمدادٌ من صفات الله الأزلية التي لا تتبدّل .

فإن عرفنا أثرًا من آثار أسماء الله تعالى وصفاته سبحانه في الكون : كـ(الرحمة) أو (العدل) أو (الحق) أو (الجمال) أو (الحكمة) ، فهذا يُوجِب بقاءَ هذه الآثار ، مهما حاول بعضُ الخلقِ الحرِّ المكلَّفِ (الثقلين) أن يَـحْرِفَ الوجودَ عن حقيقته ، مهما سعى الثقلان – بتعمُّدِ البغي منهم ، أو بتهوّر الجهل – أن يُفسدوا هذه العلاقة التي بين أثر الخالق وخلقه ، فهم (الإنس والجن) جزءٌ من خلقه ، وأفعالُ حريتهم جزءٌ من مقاديره تعالى وتحت سلطان حِكمته وأمره ، وهم أحقر من أن يبلغوا من تغيير حقيقة الخلق والإيجاد شيئًا ! ومهما ظنّ بعضُنا خفاءَ أثر بعض أسماء الله وصفاته في وقتٍ من الأوقات ، بسبب فسادٍ واقع ، أو اختلال في النظام (فيما نحسب) ، فهذا ليس إلا فيما يبدو لنا ، ثم لن يَعْدَمَ الوجودُ أن تتبدّل أحوالُه ، لتعود آثارُ

صفات الباري ظاهرةً للعيان ، تدلّ الخلقَ إلى كمال الخالق في أسمائه وصفاته ، كما كانت قبل ذلك الفساد والإخلال الذي ظنه بعضُ الناسِ (من ضعيفي البصيرة) قد بدّل حقيقةَ الخليقة : حقيقةَ أن الخليقةَ قائمةٌ على علاقتها بأسماء ذي الجلال وصفات ذي الإكرام .

وهكذا يتبين أن علاقة الكون والخلق بـ(الأسماء والصفات الإلهية) هي التي صاغت قانونَ المخلوقات ، وهي التي وضعت ميزانَ نظامِه ومعيارَ بقائه ، وهي محكمة العدل الإلهية ، فلا مناص من ثباتها ، ولا مهرب عن سلطان حُكمها النافذ . وهذه هي (السُّننُ الإلهيةُ في الخلق) بعينها ، ومن لم يَرَها ها هُنا (في هذا التقرير).. فما رآها في مكانها الحقيقي قطّ ، ولن يعرف استمدادَها أبدًا !

فالحمد لله الذي أنعم علينا بآثار كمالاته ، وأكرمنا بتجليات صفاته !

ولذلك سأخصُّ من بين أسماء الله تعالى وصفاته اسمين فقط ، وإلا فالأمر أوسع من ذلك بكثير ؛ لأبيّنَ استمدادَ السنن الإلهية في الخلق منهما ، وهما :

١- اسم (الحق) وتجلياته في (العدل) وعلاقته بالسنن الإلهية .

٢- واسم (الجميل) وتجلياته في (الإبداع) وعلاقته بالسنن الإلهية .

وهما المبحثان التاليان :

المبحث الثاني

اسم (الحق) وتجلياته في (العدل) وعلاقته بالسنن الإلهية

من أظهر آثار الأسماء الحسنى والصفات العُلا في السُّنن الإلهية في الخلق : الـحَقّانية ؛ لأن الخلق كله مخلوقٌ بالحق حالًا وإلى الحقّ مآلًا ومن الحق سبحانه نشأةً وابتداءً .

فاسمه تعالى هو (الحق) ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج : ٦ ، ٦٢] ، وقال تعالى ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٢٥] .

ولذلك فقد بيّنَ الله تعالى أن خلقه السموات والأرض وما بينهما لم يكن إلا بالحق ، وأن مجريات مقاديره فيهما كلها لم تَـجْرِ إلا بالحق ، وذلك في آيات كثيرة ، تدلّ كثرتُها على مركزية هذا المعنى في القرآن الكريم :

١ –فقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام ٧٣] .

٢ –وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٥] .

٣–وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم : ١٩] .

٤-وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[الحجر : ٨٥].

٥-وقال تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل : ٣].

٦-وقال تعالى ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٤٤].

٧-وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم ٨-٩].

٨-وقال تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر : ٥].

٩-وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان : ٣٨-٣٩].

١٠-وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية : ٢١-٢٢].

١١ -وقال تعالى ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف : ٣] .

١٢ -وقال تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن : ٣] .

وقد توقف الطاهر ابن عاشور عند هذه الحقيقة القرآنية في مواضع كثيرة من تفسيره، فقال مثلا في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[الحجر : ٨٥] : «وتشمل السماوات والأرض وما بينهما : أصنافَ المخلوقات من حيوان وجماد ، فشمل الأُممَ التي على الأرض وما حلّ بها، وشمل الملائكةَ الموكلين بإنزال العذاب ، وشمل الحوادثَ الكونيةَ التي حلّت بالأمم من الزلازل والصواعق والكسف.

والباء في ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ للملابسة ، متعلقةٌ بـ﴿خَلَقْنَا﴾ ، أي : خلقًا ملابسًا للحق ومقارنًا له، بحيث يكون الحق باديًا في جميع أحوال المخلوقات.

والملابسة هنا عُرفية : فقد يتأخر ظهور الحق عن خلق بعض الأحوال والحوادث تَأَخُّرًا متفاوتًا . فالملابسة بين الخلق والحق تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحق وخفائه ، على أنه لا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور ، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[سورة الأنبياء: ١٨] .

و(الحق) هنا : هو إجراء أحوال المخلوقات على نظامٍ ملائمٍ للحكمة والمناسَبةِ في الخير والشر ، والكمال والنقص ، والسمو والخفض ، في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته ، وما

يُصلحه ، وما يَصلح هو له ، بحسب ما يقتضيه النظام العام ، لا بحسب الأميال والشهوات. فإذا لاح ذلك الحقُّ الموصوف مقارنًا وجودُه لوجود محقوقه : فالأمر واضح ، وإذا لاح تَـخَلُّفُ شيءٍ عن مناسَبة : فبالتأمل والبحث يتضح أن وراء ذلك مناسَبةٌ قضت بتعطيل المقارنة المحقوقة ، ثم لا يَتبدّلُ الحق آخرَ الأمر.

وهذا التأويل يُظهره موقعُ الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت ، فإن ذلك جزاءٌ مناسِبٌ تَـمرُّدَها وفسادَها، وأنها وإن أُمهلت حينًا - برحمةٍ من الله ، لحكمةِ استبقاءِ عمرانِ جزءٍ من العالم زمانًا - فهي لم تُفلت من العذاب المستحَقِّ لها ، وهو من الحق أيضا ، فما كان إمهالُها إلا حَقًّا، وما كان حُلولُ العذاب بها إلا حَقًّا عند حُلولِ أسبابه ، وهو التمرُّدُ على أنبيائهم . وكذلك القول في جزاء الآخرة : أن تَعطُّلَ الجزاءِ في الدنيا بسبب عَطَلِ ما اقتضتْهُ الحكمةُ العامةُ أو الخاصةُ.

وموقع جملة ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ في الكلام يجعلها بمنزلة نتيجة الاستدلال، فمن عرف أن جميع المخلوقات خُلقت خلقًا ملابسا للحق ، وأيقنَ به : عَلِمَ أن الحق لا يتخلَّفُ عن مستحِقِّه ، ولو غاب وتأخّر . وإن كان نظامُ حوادث الدنيا قد يُعطِّلُ ظهورَ الحق في نصابه ، وتُـخَلِّفُه عن أربابه.

فعُلم أن وراء هذا النظام نظامًا مُدّخَرًا يتّصل فيه الحقُّ بكل مستحِقٍّ : إن خيرًا ، وإن شرًّا، فلا يحسبنَّ من فات من الذين ظلموا قبل حلول العذاب بهم مَفْلتًا من الجزاء ، فإن الله قد أَعدَّ عالَـمًا آخر يُعطي فيه الأمورَ مستحِقِّيها.

فلذلك أعقب الله و﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بآية ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾، أي : أن ساعةَ إنفاذِ الحقِّ آتيةٌ لا محالة ، فلا يريبك ما تراه من سلامة مُكذِّبيك وإمهالهم ، كما قال

تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة يونس: ٤١] . والمقصود من هذا تسلية النبي ﷺ على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم»[١].

ونبّهَ ابنُ عاشور إلى أن إبراز هذه الحقيقة الكونية القرآنية ، وهي أن الخلق كله مخلوق بالحق ، ومقاديره لا تجري إلا بالحق = كان كثيرًا ما يأتي في سياق التذكير بحتمية قيام العدالة الربانية ؛ إذ ذلك من لوازم حَقانية الكون والأقدار ، ولولا حتمية تلك العدالة لما تحقق أن يكون الحقُّ هو مُبتَدأَ الخلق وميزانَ الوجود .

قال ابن عاشور : «كثيرٌ في القرآن الاستدلالُ بإتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أن لله حكمةً في خَلْقِ المخلوقات وخَلْقِ نُظمِهما وسُننها وفِطَرِها، بحيث تكون أحوالُها وآثارُها وعلاقةُ بعضها ببعض متناسبةً مجاريةً لما تقتضيه الحكمة . ولذلك قال تعالى في سورة الحجر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الحجر : ٨٥]. وقد بينا هنالك كيفية ملابسة الحق لكل أصناف المخلوقات وأنواعها ، بما يغني عن إعادته هنا.

وكَثُرَ أن ينبه القرآنُ العقولَ إلى الحكمة التي اقتضت المناسبةَ بين خَلْقِ ما في السماوات والأرض ملتبسًا بالحق ، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائعُ لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم ، إلى أن عَمّتهم الشريعةُ العامةُ الخاتمة شريعةُ الإسلام، وإلى الحكمة التي اقتضت تكوينَ حياةٍ أبديةٍ تلقَى فيها النفوسُ جزاءَ ما قدمته في هذه الحياة الزائلة جزاءً وِفاقًا.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١٤/ ٧٥-٦٧) .

فلذلك كَثُرَ أن تُعْقبَ الآياتُ المبيِّنةُ لما في الخلق من الحقِّ بالآياتِ التي تَذْكُرُ الجزاءَ والحسابَ ، والعكس، كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنين: ١١٥] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[الحجر : ٨٥] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾[ص: ٢٦-٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الدخان: ٣٧- ٤٠] ، وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف : ٣] ، إلى غير هذه من الآيات.

فكذلك هذه الآية ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦] ، عَقَّبَ بها ذِكْرَ القوم المهلكين .

والمقصود من ذلك : إيقاظُ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من : دقائقِ المناسبات ، وإعطاءِ كل مخلوق ما به قِوامه . **فإذا كانت تلك سنةُ الله في خَلْقِ العوالمِ : ظَرْفِها ومَظْرُوفِها ، استُدِلَّ بذلك على أن تلك السُّنة لا تتخلَّفُ في ترتب المسبَّبات على أسبابها** ، فيما يأتيه جنسُ المكلفين من الأعمال . فإذا ما لاح لهم تَخلُّفُ سببٍ عن سببه : أيقنوا أنه تَخلُّفٌ مُؤقَّتٌ . فإذا عَلَّمهم الله على لسان شرائعه : بأنه ادَّخر

الجزاء الكامل على الأعمال إلى يومٍ آخر : آمنوا به ، وإذا عَلَّمهم أنهم لا يفوتون ذلك بالموت ، بل إن لهم حياةً آخرةً ، وأن الله باعثُهم بعد الموت : أيقنوا بها ، وإذا عَلَّمهم أنه ربما عَجَّلَ لهم بعضَ الجزاء في الحياة الدنيا : أيقنوا به.

ولذلك كَثُرَ تعقيبُ ذِكْرِ نظام خلق السماوات والأرض بِذِكْرِ الجزاء الآجل والبعثِ وإهلاكِ بعض الأمم الظالمة، أو تعقيبُ ذكر البعث والجزاء الآجل والعاجل بذكر نظام خلق السماوات والأرض.

وحسبك تعقيبُ ذلك بالتفريع بالفاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

ولأجل هذا اطّردَ أو كاد أن يَطَّرِدَ ذِكْرُ لفظ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعد ذكر خلق السماوات والأرض ، في مثل هذا المقام ؛ لأن تخصيص (ما بينهما) بالذكر يدل على الاهتمام به ؛ لأن أشرفَه هو نوعُ الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال ، وهو مناط التكليف . فليس بناءُ الكلام على أن يكون الخلقُ لعبًا منظورًا فيه إلى ردِّ اعتقاد معتقِدِ ذلك ، ولكنه بُني على النفي أخذًا لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة الله ، بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعبا»[١].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٣٠-٣٢) .

ولهذا جاء ذكر (العدل) ورمزه (الميزان) بعد ذكر (رفع السموات) مقرونًا به ، في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧] ، قال ابن عطية : «ومعنى ﴿وَضَعَ﴾ : أقرَّ وأثبت، و﴿الْمِيزَانَ﴾ : العدل ، فيما قال الطبريُّ ومجاهدُ وأكثرُ الناس»[١].

وصرّح ابن كثير (ت٧٧٤هـ) بهذه العلاقة بين خلق السموات والأرض بالحق ووضعِ العدل وإثباته في هذا الخلق تكوينًا وتقديرًا، فقال (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ : «خلق السموات والأرض بالحق والعدل ، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل»[٢].

وقد بيّنَ الله تعالى هذه العلاقة بين ميزان العدل وتقادير الخلق ، فقال سبحانه ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر : ١٩] ، فقوله ﴿مَوْزُونٍ﴾ تعني : أنه مقدَّرٌ بقدرٍ من الحِكمة والحُسن ، وهي كقوله تعالى بعد ذلك في السورة نفسها ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر : ٢١] .

قال الفخر الرازي في تفسير ﴿مَوْزُونٍ﴾ : «أي : متناسبٌ محكومٌ عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة»[٣].

وهذا ما يفسّرُ مجيء ذكر السُّنن الإلهية في سياق بيان حتمية إقامة العدل :

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٩/ ٣٠٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير – تحقيق : سامي السلامة . الطبعة الثانية : ١٤٢٠هـ . دار طيبة : الرياض – (٧/ ٤٩٠) .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٩/ ١٣٦-١٣٧) .

كقوله تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

وقوله تعالى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢] .

وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥] .

وقوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٢-٤٤] .

وبذلك يتبيّنُ كيف كان لاسم الله تعالى (الحق) وتجلّيه في العدل الرباني أثرُه الظاهر الكبير في بيان حقيقة السنن الإلهية في الخلق وأقدارهم ، وأنه أثرٌ قطعي الوجود ؛ لأنه صادرٌ من الحقِّ المبين سبحانه وتعالى .

ولهذا إن أَذِنَ الله بزوال الحق من الأرض في آخر الزمان : استحقت الأرضُ والحياة الدنيا كلُّها الزوالَ والفناءَ التامّ ، فما عاد وجودُها ممكنًا واستحال بزوال الحق منها ، ووجب أن يحل مكانها يوم الحق ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ : ٣٧] ، وهو يوم القيامة ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٨-٩] .

فلا بقاء للحق الذي خُلق بالحق إلا بالحق ؛ لأن (الحقَّ) سبحانه هو من خلقه وقدّر له الأقدارَ كلها بالحق ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦].

المبحث الثالث

اسم (الجميل) وتجلياته في (الإبداع) وعلاقته بالسنن الإلهية

قد سبق أن قررنا أن (السنن الإلهية في الخلق) هي آثار صفات الله تعالى الخالدة في خَلْقِه وأقدارهم ، وبيّنّا لماذا وجب أن تكون كذلك ، وأن معنى هذا التعريف أن خلق الله مقاديره سبحانه لابد أن تظهر عليها آثار أسمائه وصفاته . فإذا كان من أسمائه عز وجل (الجميل) ، كما قال: ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال»[1]: وجب أن تظهر آثار جمال الباري في خلقه وفي أقداره.

قال ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) : «وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه ، بل لو كان جمال الخلق كلهم على رجل واحد منهم ، وكانوا جميعهم بذلك الجمال = لما كان لجمالهم قط نسبةٌ إلى جمال الله ، بل كانت النسبةُ أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ جدًّا إلى جِرْمِ الشمس ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل:٦٠] .. (إلى أن قال) ومن أسمائه الحسنى (الجميل) ، **ومَنْ أَحَقُّ بالـجَمال ممن كلُّ جَـمالٍ في الوجود : فهو من آثار صُنعِهِ ؟!**»[2].

وعبّر (رحمه الله) عن هذا المعنى في نونيته فقال:

وَهُـوَ الجَمِيـلُ عَـلَى الحَقِيقَـةِ كَيْـفَ لا ... وجمَــالُ سَـــائِرِ هــذِهِ الأكْـــوَانِ
مِـنْ بَعْـض آثَـارِ الجَمِيـلِ فَرَبُّهَـا ... أَوْلَى وَأَجْـدرُ عِنْـدَ ذِي العِرْفَـانِ
فَجَمَالُـهُ بِالـذَّاتِ والأوصَـافِ وَالـ ... ـأفعَـــالِ وَالأسْـــمَاءِ بالبُرْهَـــانِ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩١) .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية – تحقيق : محمد عزير شمس . الطبعة الأولى : ١٤٣١هـ . دار عالم الفوائد : مكة المكرمة –(٥٦٧ – ٥٦٨) .

لا شَيءَ يُشْــــبِهُ ذَاتَـــهُ وصِــــفَاتِهِ   سُــبْحَانَهُ عَــنْ إفْـكِ ذِي بُهْتَــانِ(١)

وقال بديع الزمان النُّورسي (ت١٣٧٩هـ): «إن جميع أنواع الجمال المشاهَدة على الكائنات كلها، تأتي من جميلٍ لا منتهى لجماله ، بحيث إن هذه الكائنات المتبدلة دومًا والمتجددةَ باستمرار: تصف جمال ذلك الجميل وتُعرّفه، بجميع موجوداتها ، وبألسنة أدائها لوظيفةِ مرآةٍ عاكسة لذلك الجمال»(٢).

وقال النورسي في موطن آخر : «إننا ننظر إلى هذه المصنوعات ، ولاسيما الحيوانات والنباتات الماثلة أمامنا، فنرى أن تزيينا دائما وتجميلا لطيفا وتنظيما دقيقا – لا يمكن أحالته على المصادفة –يهيمن عليها، مما يبيّن القصدَ والإرادة ويُشعر بالعلم والحكمة»(٣).

وقد أثبت الله تعالى أثر هذه الصفة في خلقه ، فقال تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] ، وجاء في الآية الأخرى وصف هذا الجمال الـخَلْقي بالإتقان ، فقال تعالى ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] . وعَدَّهما الطبري تفسيرين لآية ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ : من الإتقان والإحكام ، ومن الـحُسن والجمال(٤). والحقيقةُ أن الإتقان والإحكام هما أهم معايير الجمال ، فلا تناقض بين التفسيرين .

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (نونية ابن القيم) لابن قيم الجوزية –تحقيق جماعة . الطبعة الأولى : ١٤٢٨هـ . دار عالم الفوائد : مكة المكرمة –(٣/ ٧٠٦–٧٠٧ البيت رقم ٣٢٣٦– ٣٢٣٩).

(٢) الشعاعات للنورسي – ترجمة إحسان الصالحي . الطبعة السادسة : ٢٠١١م . شركة سوزلر : القاهرة –(٨٣) .

(٣) الشعاعات للنورسي (٨٦) .

(٤) انظر : تفسير الطبري (١٨/ ٥٩٧ – ٥٩٨) ، وانظر أيضًا : موسوعة التفسير بالمأثور من إعداد مركز

وهذا يبيّنُ أن الـحُسْنَ والجمال سنةٌ إلهيةٌ في الخلق والتقادير ، فلا خَلَقَ الله خلقًا إلا والجمال حقيقته، ولا قدّر الله تدبيرًا في الخلق إلا والجمال في باطنه مستقرٌّ ! ولا بُدّ أن يكون الأمر كذلك ؛ لأن الخلق آثار صفات الخالق سبحانه ، وإذا كان جمال الخالق لا حدود له : ظهرت آثار جماله – ولا بُدّ – في جميع خلقه .

ولكن .. لما كانت مقاييسُ الخلق في الجمال مختلفةً ، ولما كانت معاييرهم له تنتابها النسبيّةُ كثيرًا ، ولما كان إدراكُهم للجمال بالحس (مرئيًّا أو مسموعًا أو ملموسًا أو مشموما) لا يمكن أن يَسْمُوَ على نقصِهم البشري وقُصورِهم الإنساني = فلا بُد أن يعجزوا عن استيعاب كل جمالٍ في الخلق بذلك الحسِّ الضعيف ، وإن تمكّنوا من إدراكِ بعضه بالحسّ . لذلك جعل الله لهم وسيلةً عقلية يمكنها أن تُسعفَهم في إدراك معنى الجمال بغير الحس ، وذلك من خلال رؤية (الحكمة) في الخلق[1]، فـ(الحكمة) دليلٌ على الجمال ، إذ لا يمكن أن تَتَخَلَّفَ الحكمةُ عن الجمال ، فكل جمالٍ فـ(حكمة) تصبغه وتَتَخَلّله ، ولا توجدُ (الحكمة) إلا وفيها الجمال الحقيقي، أو هي الجمال الحقيقيُّ نفسُه! والعاقل يستشعر جمال الحكمة كما يستشعر الحواسيّون الجمالَ الحسيّ ، أو أشد استشعارًا ! بل مَن شَعَرَ بجمال الحكمة : علم أنها هي رُوح كل جمالٍ حسيٍّ حقيقيٍّ !!

الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي : جدة – الطبعة الأولى : ١٤٣٩هـ .دار ابن حزم : بيروت –(١٧/ ٥٧٣–٥٧٤) .

(١) ومن ظريف التنبيه إلى هذا المعنى من كلام السلف : ما ثبت عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ، حيث قال : «أما إن اسْتَ القِرْدِ ليست بحسنة، ولكنه أحكمها» . أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٩٨) .

ولذلك فقد امتلأ الكتاب العزيز بتنبيهنا إلى مواطن من مواطن جمال الكون بطريقة أخّاذة، يضع فيها أيدينا على مواضع الجمال في الخلق ، ويلفت أنظارنا إلى لوحات الجمال الكونية ، ويعطينا دُروسًا راقية في الذوق الجمالي ، وفي طريقة الشعور بلذة هذه الفنون التي انتشرت في الطبيعة .

ومن هذه الآيات :

قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : ١٦] .

فانظر كيف جعل الله تعالى من أهم أسباب تزيين الكون بالنجوم التي تلمع في صفحة السماء : أن تكون زينة بهيجةً يستشعرها الناظرون ! أوليس هذا درسًا في تعليم تَذَوُّقِ الجمال؟! ثم أوليس هذا مما يبيّن أهمية الجمال في خلق الله ؛ إذ جعل الله تعالى استشعارَ الزينةِ في خلق النجوم سببا كافيا لخلقها (وإن لم يكن هو السبب الوحيد ولا شك)؟! هذه النجوم التي لا يحصيها عادٌّ ، ولا يعرف أحجامها وأفلاكها ونظامها ومَجَرّاتها إلا الله تعالى ، كلها جُعلت زينةً للناظرين !!

ما أجملك يا ربّ !!

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ [ق : ٦-١٠].

فتنبهوا لهذه الوقفات الجمالية في هذه الآيات :

- ﴿ وَزَيَّنَّاهَا﴾ .

- ﴿ بَهِيجٍ﴾.

- ﴿ مُبَارَكًا﴾.

- ﴿جَنَّاتٍ﴾.

- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾.

- ﴿طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾

كل كلمة من هاته الكلمات درسٌ في تذوق الجمال ! ولولا طلب الاختصار لأطلت في محاولة بيان طريقة الإفادة من درسها القرآني البديع ، لكنني أدع القارئ الحصيف إلى تأمله ومعرفته وخياله لكي يستفيد هذا الدرسَ القرآنيَّ في الجمال .

وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف : ٣٢].

فيسمي الله تعالى مُتع الدنيا من طعامٍ وشرابٍ ومسكنٍ وملبسٍ ومركبٍ[١] ونحوها ومن المتع بـ﴿زِينَةَ اللهِ﴾ ، هكذا منسوبةً إلى ذاته العلية ! وهذا تشريف وثناء لا يساميه تشريف وثناء!! ويسميها ﴿الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ، واصفا إياها بالطِّيب ! فما أبعد هذه النِّسَب

---

(١) قال تعالى ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل:٨] .

وقال تعالى ذاكرًا لفظة (الـجمال) صريحةً في الأنعام ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : ٥- ٦] .

والأوصاف الدالّة على الجمال والحُسن والخيريّة عن فُهوم أصحاب الزهد المنحرف عن مُتع الدنيا وزينتها !

بل يُتمِّمُ الله تعالى تأكيده على شرف تلك الزينة : حيث بيّنَ أن (زينةَ الله) و(طيباتِ رزقه) وإن شُورِكَ فيها المؤمنون من الكافرين في الدنيا ؛ إلا أنها ستكون خالصةً للمؤمنين وحدهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحدٌ سواهم[1]. فيكفي مُتعَ الحياة الدنيا المباحة شرفًا أن جمعها الله تعالى بمتع جنة الخلد في كونها جزاءً كفاءً للمؤمنين خالصةً لهم في الآخرة ، مع اختلاف حال زينة الدنيا عما في جنة الخلد !

وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧].

وقال تعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات :٦] .

وقال تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك :٣-٥] .

فانظر كيف يأمرنا الله تعالى أن ننظر في السموات والأفلاك ، بل أن نكرّر النظر والتأمل ، لكي ينتهي بنا المطاف أن ندرك ما ازّينت به السماءُ بتلك المصابيح النابضة في جوف الفضاء البعيد . أوليس هذا درسًا عميقًا في ضرورة تنمية ذائقة الجمال لدينا : بطول النظر ، وتكراره،

---

(١) هذا ما عليه عامة المفسرين والمحققون منهم : تفسير الطبري (١٠/ ١٥٩) ، والوجيز للواحدي – تحقيق : صفوان الداوودي . الطبعة الأولى : ١٤١٥هـ . دار القلم : دمشق –(٣٩٢)،والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٢٤٤-٢٤٥)،وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٨).

والصبر على محاولة استشعار مواطن الجمال في الكون ؟! إنها تدلنا على التدريب العملي لتنمية ذائقة الجمال لدينا ، وأنه لابد من تكرار النظر المتأمِّل ، لكي تُحسّ بالجمال الكوني .

وقال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران : ١٤] .

فانظروا ماذا كان موقف أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب من هذه الآية : فقد صحَّ عنه (رضي الله عنه) أنه قال : « اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنتَ لنا، اللهم إني أسألك أن ننفقه في حقه ، وأعوذ بك من شره»[1]. فقد عرف الفاروق أنه ما دام المزيِّنَ لها هو الله تعالى، كما دلت عليه الإضافةُ في آية سورة الأعراف ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، فقد كان حقًّا علينا أن نفرح بها ! أَفَيَصِحُّ أن يُزيّنَ الله تعالى (في جلاله وجماله) لنا شيئًا ، ثم لا نفرح به ؟!! إنّا إذن لبُغضاء ، لا ذوقَ ولا أدبَ ولا نفوسًا سويةً!!

ووازنوا هذا الفقه لمعنى الزهد من عبقري الزُّهّاد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بفهم أحد كبار فقهاء التابعين وسادتهم أحد أئمة الزهد : وهو الحسن البصري (ت١١٠هـ) ، فقد

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في صحيحه – مع فتح الباري – (كتاب الرقاق ، باب ١١ : قول النبي صلى الله عليه و سلم " هذا المال خضرة حلوة " ١١/ ٢٥٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف – تحقيق : محمد عوامة –(رقم ٣٤٤٧٤) ،وأبو داود في الزهد (رقم٧١) ، وعمر بن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٦٩٩) ، وابن أبي الدنيا في الإشراف على منازل الأشراف (رقم ٢٢٣) ، وغيرهم بإسناد صحيح.

استشكل هذا الأمر ، حتى إنه قال : «من زيّنها ؟! ما أحدٌ أَشدَّ لها ذَمًّا من خالقها»[1]، بل رُوي عنه (رحمه الله) أنه قال في تفسير ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾: «زَيَّنَ لهم الشيطان»[2].

فشتان ما بين الذي قال : زينها الرحمن (وهو الفاروق عمر رضي الله عنه) والذي قال : زيّنها الشيطانُ وذَمّها الرحمنُ (وهو الحسن البصري رحمه الله) !

والصواب الذي لا شك فيه هو تفسير الفاروق (رضي الله عنه) ، وإنما الذي ذمه الله تعالى من الدنيا هو فعلُ العبد فيها بما يخالف ما وُضعت له الدنيا[3]: وهو أن يساويها بالآخرة ،

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٣٥٤) ، وابن أبي حاتم في تفسيره – تحقيق : حكمت بشير ياسين . الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ. دار ابن الجوزي : الدمام –(٣/ ٧٣- ٧٤رقم ١٧٧) ،بإسناد صحيح .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٤رقم ١٧٨).

(٣) قال ابن قيم الجوزية : «**الدنيا في الحقيقة لا تُذمّ ، وإنما يتوجَّهُ الذمُّ إلى فِعْلِ العبدِ فيها** ،وهى قنطرةٌ ومعبرٌ إلى الجنة أو إلى النار . ولكن لما غلبت عليها الشهواتُ والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة ، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها ، وهو الغالب على اسمها = صار لها اسم الذم عند الاطلاق . وإلا فهي مبنى الاخرة ومزرعتها ، ومنها زاد الجنة ، وفيها اكتسبت النفوسُ الإيمانَ ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاءَ مرضاته ، وخيرُ عيشٍ ناله أهلُ الجنة في الجنة : إنما كان بما زرعوه فيها . وكفى بها مدحًا وفضلا ما لأولياء الله فيها من : قرةِ العيون ، وسرورِ القلوب ، وبهجةِ النفوس ، ولذةِ الارواح ، والنعيمِ الذى لا يشبهه نعيمٌ : بذكره ، ومعرفته ، ومحبته ، وعبادته ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والأُنس به ، والفرح بقربه ، والتذلل له ، ولذة مناجاته ، والإقبالِ عليه ، والاشتغال به عمن سواه . وفيها : كلامُه ووحيُه وهُداه ورُوحُه الذى ألقاه من أمره فاجتبى به من شاء من عباده» . عُدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية – تحقيق : إسماعيل بن غازي مرحبا . الطبعة الأولى : ١٤٢٩هـ. دار عالم الفوائد : مكة المكرمة –(٣٣١-٣٣٢) .

فضلا عن أن يقدمها عليها، وأن يُفسد فيها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦،٨٥]!

فهذه الآيات (وغيرها كثيرٌ مما لم أذكر) التي تبيّنُ ملابسة الجمال للخلق والتقدير، ملابسةَ الروح للجسد، تُتبيّنُ أن بقاء هذا الأثر الجمالي لصفة (الجميل) سُنةٌ إلهيةٌ، مهما حاول المفسدون تغييبها، ومهما ظنّ قاصرو النظر تَخلُّفَها؛ فإن العاقبة ستكون للجمال .. ولا بُد. وهذا مما أثبتناه في المبحث الأول، الذي بينا فيه حتمية بقاء آثار صفات الله في الكون، وأن استمدادَ قانون الخلق كان منها، وبذلك صار هذا القانون سُننًا إلهية في الخلق والتدبير: لا تتبدّل ولا تَـحُول.

ألا وإن وقفات الكتاب العزيز مع سنة الله تعالى في جمال الكون أكثر من أن يستوعبها مثل هذا المقال المختصر، ولكني أكتفي بتلك الومضات التي تنبئ عن تلك الحقيقة الوضّاءة في القرآن الكريم: أن الجمالَ سنةٌ إلهيةٌ في الكون لا تَتخلّف، فإذا أَذِنَ الله بشيوع القُبْحِ والإفساد في الكون ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فقد أذن الله تعالى للدنيا بالزوال، وأن يحلّ يومُ الحساب! حقيقةٌ قدرية وسُنة إلهية، تبين أن سُنن الله تعالى لا تتخلف أبدًا، ولو بالانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء!!

وهذا مما يبين علاقة أسماء الله تعالى وصفاته بسننه الكونية، ويُظهر مقدار قوة ظهور تجليات الحق في العدل، والجمال في الإبداع، بل يُظهر مقدار قوة اجتماع آثار الأسماء والصفات كلها وتجليتها في الكون خلقًا وتقديرًا، حتى ليكاد يكون تَجلِّي الحقِّ هو الجمالَ كما كان هو العدل، وتَجلِّي الجمالِ هو العدلَ كما كان هو الإبداع والإتقان والإحكام!

وقد أنشأتُ في هذا المعنى أبياتًا، قلتُ فيها:

إن الجـــمالَ ظـــواهرٌ ومعـــاني وهــو الحيـاةُ بأصـلها الرُّوحـاني

خُلِـقَ الوجـودُ مـن الجـمالِ ، فكُلُّـه حُسْــنٌ ، وفي حُسْــنِ الحقيقـة فـاني

خَلَــقَ (الجميـلُ) حقيقـةً مركـوزةً فَـــتَغَلْغَلَتْ في داخــل الوجــدانِ

وجـدانِ هـذا الكـون، فاصْطَـبَغَتْ بـه فالـ ـــحُسْنُ بَرّانيُّـــه جُـــوّاني

خَطِـئَ الـذين تَصـوّروا (حقًّـا) خـلا مــن حُسْــنِه ، فكلاهمــا صِــنوانِ

فــإذا رأيــتَ حقيقــةً فــانظرْ إلى سِــحْرِ الجــمالِ بَعيــدِه والــدَّاني

فجـمالُ حـقٍّ الله قـد جعـل الجـما لَ مناديًـــا بحقيقـــةِ الأكـــوانِ

******

وهذا آخر ما تيسّر لي تدوينه في هذا الموضوع الـمُلْهِم الكبير ، وأسأل الله تعالى أن يجعل في قليلِ ما كتبتُ كثيرَ الأجرِ والنفع !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وعلى ذريته إلى يوم الدِّين .

والله أعلم

وكتب

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

في مكة المكرمة

ظهر يوم السبت الموافق ١٩ شوال ١٤٤٠هـ الموافق ٢٢ يونية ٢٠١٩م